سحر البلاغة

وسر البراعة

للثعالبي

وهو كتاب ذو قيمة عالية ، يدل على أن الثعالبى[٢٤٦] يتمتع برحابة الفكر وسعة الأفق ، وثقافة أدبية ، وهذا الكتاب كان من بين نوادر المخطوطات إلى أن أذن الله له برؤية النور فقيض له الأستاذ / عبد السلام الحوفى فصححه وضبطه ثم نراه ينهض بفهرس للكتاب يثبت أنه صدره بكلمة له وترجمة للمؤلف ، ووصف للنسخة وتصحيحها ، ثم نطالع الكتاب فنراه خلوا مما أخبرنا به ضابط الكتاب ومصححه .

ويبدأ الكتاب بمقدمة للمؤلف يعترف فيها صراحة أنه أخرج بعض ممن سبقوه من الأدباء والبلغاء والشعراء فيقول " فإن هذا الكتاب أخرجت بعضه من غرر[٢٤٧] نجوم الأرض ، ونكت أعيان الفضل من بلغاء العصر فى النثر ، الذين أخرج معظم كتابه من غرر نثرهم ، ودر كلامهم ، وهم كثرة كاثرة من أهل الشام ، والعراق وأهل الجبل وفارس ، وجرجان وخراسان والطارئين عليها .

فمن أهل الشام : أبو الفرج الببغاء ، وأبو محمد الفياض ، ومن أهل العراق : أبو محمد المهلبى الوزير ، وأبو إسحاق الصابى ، وابن عمه أبو الخطاب وأبو الحسن الموسوى النقيب .

ومن أهل الجبل وفارس وجرجان : أبو العضل بن العميد وابنه أبو الفتح ، والصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد ، والأمير شمس المعالى قابوس وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبو الحسن على بن القاسم القاسانى وأبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى ، وأبو منصور بن المرزيان الشيزارى وأبو الحسن على بن عبد العزيز القاضى الجرجانى ، ومن أهل خراسان والطارئين عليها : أبو القاسم الإسكافى أبو يحيى الحمادى ، وأبو على الداستانى وأبو أحمد محمد بن اليسع ، والأمير أبو الفضل الميكالى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وأبو الفتح على بن محمد

---

٢٤٦ - سبقت ترجمته .

٢٤٧ - راجع سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبى . ضبطه وصححه الأستاذ عبد السلام الحوفى دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط أولى . ١٤٠٥ ه ١٩٨٤ م .

البستى ، وبديع الزمان أبو الفضل الهمذانى ، وأبو محمد الحسن بن محمد البروجردى ، وأبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبى[٢٤٨] .

وذلك اعتراف صريح من الثعالبى ، بأن الكتاب لم يكن من وحى قلمه ، ولا من خواطر جنانه ، ولا من بنات أفكاره ، بل كان معظمه من كلام بلغاء عصره ، وغرر نثرهم مع الإسهام بنصيب موفور من كلامه .

ومع ذلك لا نغمط الرجل حقه فهو وإن كان قد استعان بكلام هؤلاء البلغاء والأدباء والشعراء ، بيد أن له فضل التنسيق ، وحسن التأليف وجودة التصنيف ، وروعة الإخراج ، كما أنه دليل حاسم على سعة اطلاعه وغزارة معارفه . وحسن تذوقه للأدب ، وانتقائه العبارة وتخيره لمن استعان بكلامهم واستشهد بأشعارهم كما يذكر الثعالبى أسماء الشعراء الذين جعل بعض أشعارهم حلية لكلامه حيث اختار من ملح نظمهم ما يناسب قوله من أمثال :

أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، وأبو العباس النامى والسرى الموصلى ، والخالديان : أبو بكر وأبو عثمان وابن سكرة الهاشمى وأبو طالب المأمونى والقاضى التنوخى وأبو نصر بن نباته وأبو القاسم الزعفرانى ، وابن لنكك البصرى ، وأبو داف الخزرجى ، وأبو الحسن اللحام ، وابو سعيد الرستمى ، وأبو محمد بن مطران الشاشى ، وابو الحسن الجوهرى[٢٤٩] .

ثم جعل عنوان الكتاب " سحر البلاغة وسر البراعة " . وحقا إن الكتاب جاء مطابقا لمسماه . فإن القارىء لهذا الكتاب لا ريب أنه يستهدى بعباراته القوية . ويعذب لسانه بأساليبه البيانية فى كل موقف من مواقف الخطابة والكتابة وقرض الشعر . ومن ذلك يستبين لنا أنه لا غنية لشاعر ولا أديب ولا لكاتب عن مطالعته أو النظر فيه والإفادة منه.

---

٢٤٨ - ذاته ص ٥ .
٢٤٩ - ذاته ص ٦ .

ومع استعانته بكلام غيره من أساطين اللغة . وسدنة البيان وأمراء الشعراء إلا أنه موهوب حيث إنه أضاف إلى كلام هؤلاء مما أفاء الله به عليه من ذكانة وفطانة وعبقرية فذة وأفق رحب . ونسق كل ذلك ونظمه فى عقد من الجمان . يدل دلالة حاسمة على مهارته فى الصوغ وتفوقه فى الصبغ فجاء الكلام سلسا رقيقا . وعذبا رقيقا فيقول :

" فلفقت جميع ذلك ونسقته . وسردته وسقته وأنفقت عليه جميع ما رزقته وعملته بجهد المخاطر . وكد الناظر وعرق الجبين وتعب اليمين "[٢٥٠]

ثم يتحدث الثعالبى واصفا الكتاب وأنه قام بتبويبه وترتيبه ولم يستعن فى التشبيهات بشىء سوى كلام أهل العصر إلا بكلام قلة قليلة من أمثال : الجاحظ وابن المعتز فيقول : " وبوبته ورتبته وتعمدت فيه لذة الجدة ورونق الحداثة وملاحة الطراوة . ولم أشبه بشىء سوى كلام أهل العصر اللهم إلا قلائد قلائل من ألفاظ الجاحظ وابن المعتز تخللت أثناءه وتوسطت تضاعيفه . ولم أخل كلمة من كلماته التى هى وسائط الآداب . وصياقل الألباب وما تشتهى أنفس الأدباء . وتلذ أعين الكتاب من لفظ فصيح أو معنى بديع أو تجنيس أنيس أو تشبيه بلا شبيه أو تمثيل بلا مثيل أو عديل أو استعارة من الحسن مستعارة أو طباق ذى رونق باق[٢٥١] .

ويواصل الثعالبى حديثه عن مؤلفه مبينا انه أخرجه فى نسختين أهدى إحداهما إلى الشيخ الرئيس أبى سهل أحمد بن الحسن الحمدونى ، وأهدى النسخة الأخرى إلى صاحب الجيش أبى عمران موسى بن هارون الكردى ثم جمعهما فى نسخة واحدة جمعت بينهما وأخذت بأطرافهما ، وفيها زيادة طريفة مع التنقيح والتهذيب ، ويبدو أنه أهداها إلى خزانة الأمير أبى الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى[٢٥٢] .

---

٢٥٠ ـ ذاته ص ٣ .
٢٥١ ـ سحر البلاغة وسر البراعة ص ٣ .
٢٥٢ ـ ذاته ص ٤ " بتصرف " .

والكتاب ينتظم أربعة عشر كتاباً يتضمن كل كتاب منها أبواباً وإليك بيانها :

١- كتاب ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه . ويتكون من عدة أبواب عنون لها الثعالبى بالعناوين التالية . مقدمات ، غرر التحاميد ، وصف الحمد ، عادة اله جل ذكره ، صنع الله ولطفه ، ذكر الله تعالى فى أثناء الكلام ، ذكر النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه مع الإفصاح ، ذكر الآل ، ذكر القرآن .

٢- كتاب الأزمنة والأمكنة وما يتصل بها ويشاكلها . وأبوابه : فى الربيع وإقباله ، فى النسيم ووصف أثره ، فى وصف الرياض ، فى وصف البساتين ، فى غناء الأطيار إلخ .....

٣- كتاب أحوال الإنسان من لدن صغره ونمائه ، إلى كبره وإنهائه ومن ابوابه : ذكر الصبية الصغار ، نعت محاسن الجوار ، ذكر الشاب الغض الشباب . وخط الشيب أو انتشاره وهكذا .

٤- كتاب الطعام والشراب وما ينضاف إليهما ويقترن بهما وأبوابه فى الفواكه والثمار . ذكر الجوع . وصف الموائد . وصف ألوان من الحلوى ، ذكر النهم الأكول . فى الكناية عن الشراب ، وصف الشراب .... إلخ .

٥- كتاب وصف النظم والنثر وأصحابهما وآلاتهما وأدواتهما . ومن أبوابه : وصف حسن الخط فى سرعة الكتابة . ذكر البلاغة والبلغاء . زلافة اللسان والفصاحة . وصف النظم والنثر معاً . وصف الشعر . وصف الشعراء .

٦- كتاب الممادح والأثنية وما يجرى مجراها ويأخذ مأخدها . ومن أبوابه : المدح بشرف الأصل وكرم النسب . الجود والكرم . الجمال وحسن الصورة . العلم والأدب ..... إلخ .

٧- كتاب المساوى . والمقابح وما يدانيها ومن أبوابه : اللؤم والخسة . فى البخل – القبح والدمامة والحقارة . القلة والذلة . إلخ .

٨- كتاب العيادة وما يجانسها ومن أبوابه : ذكر التشكى والمرض . اشتداد العلة وسوء الظن بها . أدعية العيادة .

٩- كتاب التهانى والتهادى وما ينخرط فى سلكها ويأخذ مأخذها . ومن أبوابه : ألفاظ التهنئة بمولود . ذكر التوأمين . فى التهنئة بالبنت .... إلخ .

١٠- كتاب التعازى وما يليق بها ومن أبوابه : وصف الخبر الهائل المزعج الكناية عن موت الرؤساء والأعزة ... إلخ .

١١- كتاب الإخوانيات وما يأخذ مأخذها ومن أبوابه : ذكر المودة . حسن المخالطة . المنادمة والمؤانسة ، وصف الشوق ، ذكر الوداع ، الأدعية الإخوانية .

١٢- كتاب السلطانيات وما يأخذ مأخذها ومن أبوابه : ذكر الخلفاء ، العدل وحسن السيرة . حسن السياسة وتصريف أعنة المملكة ، ذكر الهزج وكثرة الفتنة .... إلخ .

١٣- كتاب الشوارد والفوارد وما يشبهها ومن ابوابه : هبوب ريح الإقبال - تباشير النجح والغنى ، حسن الحال ووفور المال ، ذكر المال الصامت - سوء أثر الفقر والضرب ..... إلخ .

١٤- كتاب الأمثال والحكم وما يحذو حذوها ويتحدث الثعالبى عن هذا الباب فيقول :

" قد اعتمدت بهذا الكتاب الأخير أن يكون غررة كلها مستقلة بأنفسها ، منسوبة إلى أربابها الذين هم أفراد الدهر وأعيان العصر ، فى أنواع النثر وجعلت لكل منهم باباً مفرداً " [٢٥٣] .

وفيه يورد الثعالبى كلاماً فى الأمثال والحكم لنخبة من الأدباء كالأمير شمس المعالى ، وأبى القاسم على بن محمد الإسكافى ، وأبى الفضل بن العميد وأبى محمد الحسن الهلبى الوزير . والصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد وأبى إسحاق إبراهيم

---

[٢٥٣] - ذاته ص ١٨٥ .

ابن هلال الصابى وأبى القاسم عبد العزيز بن يوسف ، وأبى الحسن على بن القاسم القاسانى . وابى بكر محمد بن العباس الخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى وأبى الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف بالببغاء وأبى الفتح البستى ، وأبى النصر العتبى وأبى الحسين الأهوازى .

نماذج من الكتاب

(١)

ذكر القرآن

حبل الله الممدود . وعهده المعهود . وظله العميم . وصراطه المستقيم . وحجته الكبرى . ومحجته الوضحى . هو الواضح سبيله . الراشد دليله . الذى من استضاء بمصابيحه أبصر ونجا ، ومن أعرض عنها ذل وهوى فضائل القرآن لا تستقصى فى ألف قيران . حجة الله وعهده ووعيده به يعلم الله الجاهل ويعمل العاقل وينتبه الساهى . ويتذكر اللاهى بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الأمور . من فضائله أنه يقرا دائباً ويكتب ويمل فلا يمل . ما أهون الدنيا على من جعل القرآن إمامه وتصور الموت أمامه طوبى لمن جعل القرآن مصباح قلبه ومفتاح لبه . من حق القرآن حفظ ترتيبه وحسن ترتيبه [٢٥٤] .

(٢)

فى النسيم ووصف أثره

زائر وجهه وسيم ، وفضله جسيم . وريحه قد سفر الربيع عن خلق الكريم ونطق بلسان النسيم وأفاض ماء النعيم . هب النسيم من الكرى وهب على الورى . وعطر الثرى . جر على الأرض أزره . وحل عن جيب الطيب زرره . نسيم الريح . نسيب الروح . قد ركضت خيول النسيم فى ميادين الرياض . يا لك من منظر جنانى . وماء فضى . ونسيم عطرى . قد حلت يد المطر أدرار الأنوار . وأذاع لسان النسيم أسرار الأزهار [٢٥٥] .

---

[٢٥٤] - راجع سحر البلاغة وسر البراعة . ط أولى – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤ م دار الكتب العلمية – بيروت – صححه وضبطه الأستاذ / عبد السلام الحوفى ص ١١ .

[٢٥٥] - ذاته ص ١٤ .

(٣)

فى غناء الأطيار

الأرض زمردة والأشجار وشى والماء سيوف . والطيور قيان قد غردت خطباء الأطيار على منابر الأنوار والأزهار إذا صدع الحمام صدع قلب المستهام . انظر إلى طلب الأشجار لغناء الأطيار ، ليس للبلابل كخمر بابل على غناء البلابل [٢٥٦] .

(٤)

النميمة

لعن الله من يفسد ذات البين ويسعى بالنميمة بين المحبين النمام يحارب بسيف كليل إلا أنه يقطع ويضرب بعضد واهن إلا أنه يوجع فلان لا يزال ينمنم حلة النمائم وينفث فى عقد المكاره قد هبت سمائم نمائمه ودبت عقارب مكائده النميمة من سلاح النساء وحصون الضعفاء [٢٥٧] .

(٥)

فى التهنئة بالبنت

هنأ الله سيدى ورود الكريمة عليه ، وثمر بها أعداد النسل الطيب لديه ، وجعلها مؤذنة بأخوة بررة ، يعمرون أندية الفضل ، ويعمرون بقية الدهر ، اتصل بى خبر المولودة كرم الله غرتها ، وأنبتها نباتاً حسناً ، وما كان من تغيرك عند اتضاح الخبر ، وإنكارك ما اختاره لك سابق القدر وقد علمت أنهن أقرب من القلوب

---

٢٥٦ ـ ذاته ص ١٥ .
٢٥٧ ـ ذاته ص ٨٢ .

وأن الله بدأ بهن فى الترتيب ، فقال جل من قائل : " يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور " وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أحـــرى ، أهـــلاً وسهلاً بعقيلة النساء . وأم الأبناء ، وجالة الأصهار والأولاد الأطهـــار ، والمبشـــرة بأخوة يتناسقون . ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمثـــل هـــذى فضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التـــذكير فخـــر للهـــــلال

(٢٥٨)

ثم نسوق نموذجاً مما استشهد به من كلام غيره كأبى بكر الخوارزمى حيـــث يقول :

الشكر على الإحسان ، والسلع بإيذاء الأثمان ، الطير واقعـــة مـــع مثلهـــا ، والنفس مائلة إلى شكلها ، الإذكار حيث التناسى ، والتقاضـــى حيـــث التغاضـــى ، العشرة مجاملة ، لا معاملة ، والمجاملة لا تسع الاستقصاء والكشف ، والعشـــرة لا تحتمل الحساب والصرف والاعتذار فى غير موضعه ذنب ، والتكلف مع وقوع الثقة عيب ..... (٢٥٩) .

---

٢٥٨ ـ ذاته ص ١٩٣ .
٢٥٩ ـ ذاته ص ١٩٣ .